

المقدمة □:

مع نهاية الأربعينيات من القرن العشرين.. لم يكن فى القاهرة من منتجات الحضارة الحديثة سوى القليل من (الأشياء) و (وسائل المواصلات) و (أدوات الترفيه) .

وكانت الحياة تمضى بطيئة، وأحيانا صعبة ، ولكنها أقل إزعاجا ، وربما أكثر سعادة !

معالم كثيرة كانت مرتبطة بهذه الحياة اختفت ، وحلت محلها معالم أخرى : أكثر عددا ، وأشد تعقيدا . فى أسرتنا مثلا : كنا نشترى الدقيق ، ونعجنه ، ثم ذهاب به إلى المفرن البلدى لنخبزه . وقد اختفى الآن كل من بائع الدقيق ، والمفرن البلدى !

وكان الصابون هو الوسيلة الوحيدة لغسيل الأجسام ، والملابس ، والأواني النحاسية ، وهذه كانت تحتاج إلى إرسالها من وقت لآخر إلى (مبيدض النحاس) ، الذى أعتقد أنه اختفى الآن تماما !

وكان أبى ، عليه رحمة الله ، يرتدى على رأسه الطربوش ، وهذا يتطلب تنظيفا وكيا على فترات .. ولهذا الغرض محل شهير فى (شارع الغورية) ، أظن أنه هو الآخر لم يعد له وجود !

وفى ميدان الحسين ، كنت أشاهد — وأركب أحيانا — عربات لنقل الناس تجرها الخيول ، ويمتلكها خواجه اسمه (سوارس) وقد اختفى تماما من القاهرة ، ولم تعد تظهر إلّا فى أفلام رعاة البقر الأمريكية .

أما الترام ، فكانت رؤيته عجبا ، والجلوس فيه متعة ، وهو بالنسبة لنا : يبدأ من أمام الأزهر الشريف ، منسابا ببطء شديد إلى ميدان العتبة الخضراء ، ومستديرا إلى شارع كلوت بك ، ومنه إلى باب الحديد ، حيث القطارات ، والسفر ، ووجه بحرى ، والمصعيد ..

وكان مرو سيارة من طراز تلك الأيام — وهى غالبا سوداء اللون ، ولما يرى من بداخلها — يثير فى نفوسنا ، نحن الأطفال ، الكثير من الدهشة والاسْتغراب !

وبالطبع كانت الجرائد موجودة ولكنها عادة من شأن الكبار ، الذين يهتمون وحدهم بالسياسة ، ويتناقشون فيها !

وكان الراديو الكهربائى ، الكبير الحجم ، يوحى فى المنزل بقدر من الأصالة ، ويدل على أن أهله مستورون ..

أما برامجهم ، فكانت قليلة ، ولكنها متميزة : ففى الصباح الباكر ، تصحو القاهرة على القرآن الكريم بصوت مصطفى اسماعيل ، أو المصطفى ، أو عبد الحكم ، أو الادمهورى .. وأحاديث الصباح الدينية : واضحة ، ومحددة ، وتدعو إلى التفاؤل ، يلقيها محمد دراز ، أو ابراهيم سلامة ، أو محمود شلتوت .. وتمارين الصباح الرياضية تشيع فى النفس مزيدا من الحيوية والنشاط .. أما أغنية :

(يا صباح الخير يا للى معانا .. ده الكروان غنى وصحانا)

فقد كانت علامة مميزة على طابع ذلك الزمن السعيد ! وبالنسبة لنا ، نحن الأطفال ، كان برنامج (بابا شارو) زادا حقيقيا ، ننتظره بشوق ، ونودعه بأسف !

أما يوم الخميس الأول من كل شهر ، فكان هو موعد الأسرة كلها حول الراديو مع حفل أم كلثوم المساهر ، والذى كان يضى عليه مزيدا من المهابة : حضور الملك شخصيا !

وبالطبع كانت هناك بعض دور السينما الشهيرة .. ولم تكن ، نحن الصغار ، بأهل لارتياحها وإنما كنا نسمع فقط أنها من حق شاب يمتلك المال والفراغ ، أو خطيبين على وشك الزواج !

وقد يكون الأسانسير موجودا .. ولكننى شخصيا لم أره إلا عندما ترك الخواجات عماراتهم التى تستخدمه ، وتحولت شققهم الواسعة فى وسط القاهرة إلى عيادات لكبار الأطباء ، ثم اضطرتنا الظروف أحيانا إلى أن نصعد فيه ، عن طريق بواب ذوى ، كان هو وحده الذى يعرف كيفية تشغيله !

أما (المنياتيفون) ، وهو جهاز الاسطوانات الذى يدار باليد ، فقد كان هو الآخر مصدر تسلية للأسرة ، ولكنها تسلية جماعية فقط .. فلا يمكن لفرد واحد أن يستمتع به ، لأنه يحتاج إلى من يظل يديره بيده ، وكثيرا ما كنا نجرى القرعة فيما بيننا على من يقع عليه عبء

هذا العمل المرهق !

ومازلت أذكر اليوم الذى عاد فيه أخى الأكبر بصفقة ، اعتبرها معظم أفراد الأسرة كسبا كبيرا ، وهى عبارة عن حوالى مائة اسطوانة قديمة ، بعضها صحيح ، وبعضها مشروخ ، لأغانى ، واسكتشات ، وتواشيح .. وأكد لنا أنه اشتراها كلها بجنيه واحد .. وقد رحنا نكتشف — ونحن نقلب فى تلك المصفقة — أصوات منيرة المهدية ، وصالح عبد الحى ، وألحان كامل الخلعى ، وسيد درويش !

ويوم آخر .. مازالت أذكر تفاصيله : عاد أبى مذهشا للغاية من رؤية جهاز حديث ، يعيد إذاعة الصوت كما هو .. ورغم أنه أكد لنا أن البائع قد أطلعه على المتجربة (تجربة سماع صوته بعد حديثه معه) إلا أنه ظل غير مقتنع تماما بما حدث .. وربما لأول مرة ، يقابل أبى من أمى وإخوتى الكبار بعدم تصديق ما يحكيه لهم ، عن مشاهداته خارج البيت !

فى هذا كله .. لم تكن أسرتى متفردة ، وإنما مثلها مثل آلاف الأسر المصرية فى القاهرة ، التى لم تدخل التلفزيون والمثلاجة والمبوتاجاز ، ولم تستخدم الأباжورة ، والجرس الموسيقى إلا فى أواخر الستينات من هذا القرن !

وإذا كان الإنسان ابن أسرته أولا .. ثم ابن المحارة ، والمحى ، والمدينة بعد ذلك ، فإن التطور السريع الذى شمل تفشى منتجات الحضارة الحديثة فى بلادنا قد قلب فى النفوس كثيرا من التصورات ، كما أنه كسر عددا لا يستهان به من العادات والتقاليد .. فمثلا : تناول الطعام بالشوكة والسكين تطلب منى ، بعدما كبرت ، أن أتسلل وحدى إلى أحد مطاعم باب اللوق ، وأجلس فى ركن منفرد ، محاولا عشرات المرات أن استخدمهما على نحو يبدو عفويا ! ودخول فندق الهيلتون بالقاهرة كان مستحيلا بدون خبرة أستاذى وصديقى د. الطاهر مكى ، الذى علمنى كيف أختار المكان المناسب ، والمطلب المناسب ، وأتحدث إلى الجرسونة بالطريقة المناسبة !

أما الطائرة .. فلم يكن يتصور فتى عاش بين حى الحسين ، وحى الدرب الأحمر أن يركبها .. وإذا ركبها فالى أين ؟! لكن الفرصة سنحت فجعلتنى أستقل الطائرة مباشرة إلى باريس ، وأذكر أننى وصلتها فى أعياد الميلاد سنة 1974 ، ولكى يطلعنا قائدنا على منظر باريس فى الليل المتأدلاً ، مال بنا عدة مرات ، ونحن فى حالة بين الموت من الخوف ، والانبهار .. لكى نرى مشهدا لا يمكن وصفه ، ولما حتى تصويره ..

وفى فرنسا ، عشت الحياة العصرية بألوانها الزاهية على مدى سبع سنوات : شاهدت المعارض ، والمتاحف ، والمسارح ، ودور السينما ، وجلست فى المقاهى الشعبية ، والكلاسيكية ، ونعمت بدفع المكتبات العامة ، وروعة الحدائق العريقة ، ودعيت إلى بعض الحفلات الدبلوماسية ، ولم يكن تصرفى ، فى هذا كله خارجا عن المألوف !

وهكذا يمكن القول بأن ظروفنا معينة قد وضعتنى فى قلب العصر الحاضر ، وجعلتنى واحدا من أبنائه . لكننى لا أدري : ما الذى يجعلنى عندما أمارس منتجات هذا العصر — وقد جهدت كثيرا مثل معظم الناس فى الحصول عليها — لا أشعر بالسعادة التى كنت أتوقعها ؟!

إن منتجات القرن العشرين، فى نظرى، ليست سوى مجموعة من الأشياء، سهلت بدون شك بعض مصاعب الحياة، ومجموعة من العلاقات، نظمت — إلى حد ما — حركة الحياة اليومية .. ولكنها أيضا مجموعة من الأساطير الجديدة، التى حلت — بكل عنف — محل الأساطير القديمة !!

وطالما تساءلت : هل استطاعت منتجات القرن العشرين أن تغير للأفضل شيئا من طبيعة الإنسان المصرى ؟

مع طلائع أدبنا العربى الحديث، تنبه المويلحى، رحمه الله، لصدمة المستجدات الحديثة على الإنسان فى بلادنا، فكتب عمله المرائد (حديث عيسى بن هشام). وعبر عنها جزئيا توفيق الحكيم فى رائعته (عودة الروح) .. وسجلها بأناقاة باللغة يحيى حقى فى عمله المذ (قنديل أم هاشم). وأفاض فيها باقتدار مشهود له نجيب محفوظ فى (الثلاثية) ..

إن أعلام الرواية العربية كانوا بدون شك أشد إحساسا بتلك الصدمة التى أحدثها الدخول المساحق للحضارة الحديثة فى بلادنا، على حين ظل أعلام الشعر من أمثال البارودى، وشوقى، وحافظ .. وحتى العقاد منهوكين فى الصراع مع المقلب الفنى، حتى إذا حسبوا فى النهاية أنهم انتهوا منه، كانت قواهم قد خارت، فلم يفعلوا شيئا مع المضمون ..

وفى رأى الخاص : أن رواد الشعر الحديث من أمثال السياب، ونازك الملائكة، وأدونيس، وصالح عبد الصبور، قد وقعوا أيضا فى نفس المأزق .. فقد استغرقهم الصراع مع المقلب، وراحوا يبذلون محاولات مستميتة من أجل الخروج عن المألوف، وكسر التعود الموسيقى الذى أسكر الأذن العربية ما يقرب من ألفى عام .. وقد نجد لديهم بعض الاستنكار والإدانة .. ولكن ذلك ضائع فى رؤية غائمة، ويأس متأصل، وألم من وجع غير معروف !

أليس عجيبا أننى أتحدث من منصة الشعر .. بينما تعاطفنى هناك مع كتاب الرواية ؟! الواقع أنهم هم الذين نفذوا إلى الجوهر من بين تعاريج الشكل، رغم أنه كان جديدا عليهم، وهم الذين عبروا عن الثابت، وسط تلاحق المتغيرات، رغم أنهم كانوا محرومين من وجود فلسفة عربية تكشف لهم حدود الثبات والتغير .. وهم الذين استطاعوا أخيرا أن يسجلوا — بوعى كامل — تلك اللحظات المفارقة فى حياة الإنسان فى بلادنا .. وهو يودع عصرا، ويستقبل عصرا آخر .

لقد كان أولى بالشعر أن يرصد هذه اللحظات ! فهو الأقدر على أن يمسك — فى لغته المكثفة — تلك اللحظات السيالة والمواقف السريعة الحركة، التى قد تنتقل من الضد إلى الضد فى لمح البصر .. ومن العجيب أنها تظل فى كلا الحالين متناسقة مع نفسها !

وهذا ما كنت أحاوله فى قصائدى التى نشرتها فى ديوانى السابق، بعنوان (ديوان حامد طاهر) الذى صدر سنة 1984. وهو نفسه — وربما بصورة أكثر قصدا — ما أقدمه اليوم من خلال هذا الديوان الجديد، الذى يحمل عنوان (قصائد عصرية) .

وهنا اعتذار لابد منه : فقد كنت ظننت أنني بنشر ديوانى السابق ، قد توقفت تماما عن كتابة الشعر ، وخاصة بعد أن استغرقنى العمل الجامعى بحثا وتدريسا ، سواء فى جامعة القاهرة ، أو فى جامعة قطر .. ولكننى فجأة وجدتني أعاود كتابة الشعر من جديد ، وأسترسل فى مجموعة من القصائد ، تدور كلها فى فلك واحد .. وأعترف بأن هذه إحدى أعاجيب الشعر : يهجرنا متى شاء .. ويعاودنا متى أراد ..

ماذا أريد أن أقول فى هذا الديوان ؟ .. شئ بسيط : هو أن السعادة تنبع من داخل النفس ، وليس من امتلاك الأشياء أو ممارستها .

وقد خرجت علينا حضارة القرن العشرين بأشياء كثيرة ، نتسابق جميعا — فى عنف بالغ ، — وأحيانا بوحشية — من أجل امتلاكها ، واستخدامها ، وتكديسها فى بيوتنا .. ظانين أننا بذلك نحقق لأنفسنا ما تسعى إليه من راحة ، وهدوء بال ! غير أننا ننسى — ونحن فى قسوة هذا الصراع اليومي الدائر — أننا نبتعد كثيرا عن أنفسنا ، وعن الناس ، وعن الطبيعة . ثم لا نكتشف إلا فى اللحظة الأخيرة أن جهدنا كان عبثا ، وأن المحطة التى وصلنا إليها لم تكن هى المقصودة من الرحلة !

فلتكن إذن لحظة صدق ..

نتوقف عندها قليلا ..

لنختبر مشاعرنا ، ونتحقق من مواقع أقدامنا .

حامد طاهر